علي بن أبي طالب مفسراً للقرآن

الدكتور احمد راسم النفيس
كلية الطب ـ جامعة المنصورة جمهورية مصر

القرآن والإنسان

من بين الأخطاء التي وقع فيها بعض (مفسري القرآن) صرفهم للخطاب القرآني (يا أيها الإنسان) في كثير من الأحيان عن مساره الواضح في مخاطبة الإنسان في كل زمان ومكان وتحت أي لافتة كان، الى مخاطبة الكفار، وكأن الخطايا والعلل والذنوب تصبح كلها في لائحة (كان يا ما كان) بمجرد أن يعلن هذا الإنسان دخوله في الإسلام ويرفع راية الإيمان!!.

ورغم أن بديهة العقل تقول أن كل مؤمن إنسان وليس كل إنسان من أهل الإيمان ولذا فعندما يقول القرآن (يا أيها الإنسان) فهو يوجه الخطاب من دون أدنى شك لكل من كان من بني الإنسان رفع أم لم يرفع راية الإسلام والإيمان.

يذكر ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾ الانفطار/٦ يقول تعالى ذكره: يا أيها الإنسان الكافر أي شيء غرّك بربك الكريم؟ غر الإنسان به عدوه المسلط عليه.

أما القرطبي فيقول: خاطَب بهذا منكري البعث أي ما الذي غرك حتى كفرت؟ «بربك الكريم» أي المتجاوز عنك.

هل حقا يقتصر الخطاب القرآني على (الكافر) و(منكر البعث) كما يقول بعض

المفسرين أم أن الخطاب يشمل الإنسان أي إنسان خدعته الدنيا بغرورها فصدق أمانيها وأوهامها وأباطيلها وسولت له نفسه القدرة على الفوز بحلولها واجتناب مُرّها رغم أنها أرته وأرت غيره تقلباتها وتغير أحوالها!!.

فلماذا يصرف القوم الخطاب والتحذير عن رافعي راية الإيمان رغم أن الشيطان أشد اشتغالاً بهم من الكفار المقطوعين بالكلية عن ساحة الرحمة والغفران؟!.

الأمر الثاني يتعلق بطبيعة الخداع الدنيوي وهل هو خداع كامل لا يملك له الإنسان دفعاً أم أن الخداع أمر مشترك يتحمل الإنسان فيه نصيبه كاملاً غير منقوص من المسؤولية لقبوله بالخدعة إذ لو كان الإنسان مسلوب الإرادة غير قادر على الانتباه والتمييز بين ما يضره وما ينفعه «لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد لأن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يُرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)». نهج البلاغة حكمة ٧٣.

كيف نقبل بمقولة الخدعة الكاملة وعجز الإنسان عن مقاومة الخداع وهو المخلوق الذي كرمه الله بالعقل وجعل له عينين ولساناً وشفتين وهداه الله النجدين ودله على ما يصلح شأنه وحذره من كل ما يرديه ويضره؟؟.

يروي الشريف الرضي في نهج البلاغة (خطبة ٢٢٢) عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه قال عندما تلا هذه الآية الكريمة:

أدحض مسؤولٍ حجة... وأقطع مغتر معذرة... لقد أبرح جهالة بنفسه.

يا أيها الإنسان، ما جرأك على ذنبك، وما غرك بربك، وما آنسك بهلكة نفسك؟.

أما من دائك بلول، أم ليس من نومتك يقظة؟

أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك؟ فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله، أو ترى المبتلى يألم يمض جسده فتبكي رحمة له! فما صبرك على دائك، وجلدك على مصابك، وعزاك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك! وكيف لا يوقظك خوف

بيات نقمة، وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته!

فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة...

ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة...

وكن لله مطيعاً، وبذكره آنساً...

وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك، يدعوك الى عفوه، ويتغمدك بفضله، وأنت متول عنه الى غيره.

فتعالى من قوي ما أكرمه!! وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته! وأنت في كنف ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضله، ولم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مطرف عين في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته! وايم الله لو أن هذه الصفة كانت في متفقين في القوة، متوازيين في القدر، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق، ومساوىء الأعمال.

وحقاً أقولُ! ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت، ولقد كاشفتك العظات، وآذنتك على سواء، ولهي بما تعدك من نزول البلاء. يجسمك، والنقص في قوتك، أصدق وأوفى من أن تكذبك، أو تغرك، ولرب ناصح لها عندك متهم، وصادق من خبرها مكذب، ولئن تعرفتها في الديار الخاوية، والربوع الخالية، لتجدنها من حسن تذكيرك، وبلاغ موعظتك، بمحلة الشفيق عليك، والشحيح بك!...

ولنعم دار من لم يرض بها داراً، ومحل من لم يوطنها محلاً! وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم.

القضية؟؟

شتان ما بين تفسيرين!!

تفسير لفظي لآيات القرآن بأقرب ما يرد على الذهن من معان للمفردات وتفسير الحكماء والفلاسفة الذين قرءوا القرآن فأحكموه وهم عدل القرآن والأمناء عليه الذين يرون في كلمات الله نافذة ومعبراً يتوصلون من خلاله للحكمة الكلية واستخلاص العبر

والدروس الضرورية عبر التأمل في أحوال الإنسان الشاهدة عليه وليس له بالغفلة والتقصير عن إدراك ما يصلح حاله وتجنب ما يردي مآله.

سنرى بين أيدينا كيف فسر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كلام خلال الله من خلال طرحه (لقضية) تشغل بال كل إنسان اعتراه داء الغفلة وسولت له نفسه السير عكس الاتجاه الذي يرضاه رب العزة سبحانه وتعالى عما يشركون.

إنه سؤال البشرية بأسرها فقلما وجد ذلك الإنسان الذي لم يتعرض لخداع الذات وهو سؤال قضية بها متهم متورط في سلسلة من الخطاء أو الجرائم وهناك دفوع يمكن أن يدلي بها ذلك المتهم وربما كان هناك محامون مزورون متطوعون أو مأجورون لبيع دينهم من أجل دنيا غيرهم أو تبريريون فاسدون يزينون الجرائم ويهونون عظائم الأمور وهناك حكم نهائي غير قابل للنقض أو الاستئناف يوم لا ينفع الندم ولا استجداء مهلة إضافية من خلال القول رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت.

كلمة واحدة من كلام الله وسؤال موجه لهذا المخلوق (ما غرك؟) بربك الكريم تفتح مجالاً واسعاً للبحث والتمحيص والمرافعة في القضية عن سبب وقوع الإنسان فريسة سهلة لمرض خداع الذات!!.

هل هي الدنيا التي تخدع وتغر وتضر؟؟.

أم أنه الإنسان الذي يخدع نفسه فيختلق المبررات ويمتنع عن استخلاص العبر من التحذيرات والتنبيهات فلا عجب إذا أن تتوالى عليه المصائب والنكبات؟!.

الجواب الكلي على هذا السؤال الاتهام يقدمه لنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

حقاً أقول! ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت.

الآية الكريمة تفتح لنا الباب لمناقشة الخطر الماحق الذي يمثله مرض خداع الذات الذي يدمر الأفراد والذي يمكن له أن ينتشر ويمتد ليصبح وباء يدمر المجتمعات.

الغرة ومن ثم الغرور، كما يقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن: غفلة في اليقظة، والغرار: غفلة مع غفوة وغره كذا غروراً كأنما طواه على غره. قال تعالى: ﴿ما غرك

بربك الكريم﴾ (الانفطار ٦)، ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ (آل عمران/١٩٦)، وقال: ﴿وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾ (النساء / ١٢٠)، وقال: ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلّا غروراً﴾ (فاطر / ٤٠)، وقال: ﴿يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً﴾ (الانعام/ ١١٢) وقال: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾ (آل عمران/١٨٥، ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ (الأنعام / ٧٠)، ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً﴾ (الأحزاب / ١٢)، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾(لقمان / ٣٣)، فالغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان اذ هو أخبث الغارين.

الغرة اذا غفلة حال اليقظة أي أنها ليست غياباً كاملاً عن الوعي. إنها حالة من تشتت الذهن تدفع صاحبها لتجاهل الأخطار المرئية والكامنة وتمنحه حالة من النشوة الزائفة والاندفاع للفوز ببعض الزخارف والمكاسب الآنية العاجلة.

الغرة والغرور حالة من الطيش والاندفاع غير الواعي في اتجاه ذي بريق وألوان تصرف ذلك الطائش المغرور عن التحفظ من الوقوع في حفر ومآزق ومصائب يصعب الخروج والفكاك منها.

في سورة الحديد يأتي النص واضحاً على المسؤولية الإنسانية الكاملة عن الوقوع في فتنة الدنيا حيث يقول تعالى ﴿ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ آية ١٤.

أنت أيها الإنسان المخدوع من فتنت نفسك وغرتك الأماني والأوهام وأسلمت قيادك للشيطان الغرور فلا تلومن إلّا نفسك ولن ينجيك من ورطتك وبلائك أن تلقي باللوم على الدنيا فما الدنيا غرتك ـ كما يوضح الإمام ـ (ولكن بها اغتررت ولقد كاشفتك العظات وآذنتك على سواء)، ولعمري لقد صدقتك الدنيا وعرفتك بما تصير اليه الأمور والأحوال وهي تتهددك في الصباح والمساء (بنزول البلاء بجسمك، والنقص في قوتك) وهي بذلك (أصدق وأوفى من أن تكذبك، أو تغرك)، ويكفيك جهلاً وغروراً أيها الإنسان إعراضك عن رؤية ما نزل بمن سبقك ومن يحيط بك من العبر والمثلات ناهيك عما تلقيته أنت من التهديدات والإنذارات فها هي ديارهم خاوية وربوعهم خالية فأنت من أغمض عينه

وأعرض عن كل التنبيهات فلو أنصفت (لتحدنها من حسن تذكيرك وبلاغ موعظتك، بمحلة الشفيق عليك، والشحيح بك)!!.

متى كانت حالة الغرور قاصرة على الكفار المنكرين للدين بالكلية؟!.

الاغترار بالدنيا حالة تدفع الإنسان المغرور حتى ولو كان من الذين قالوا آمنا بأفواههم لارتكاب المعاصي والعدوان على العباد. وممارسة الظلم خاصة إن لم يعجل الله له بالعقوبة على أفعاله وجرائمه!!.

من الذي أقنع هذا المغرور أن الله لا يحصي عليه عمله في حين يقول عز وجل ﴿وان عليكم لحافظين* كراماً كاتبين* يعلمون ما تفعلون﴾ الانفطار ١٠ ـ ١٢.

الإملاء والإمهال والستر على معاصي العباد لا يمكن إلّا أن يكون مهلة ومنحة ربانية للعبد المغرور عله يراجع نفسه ويقلع عما هو فيه من عتو وتجبر أو قطعاً لعذره قبل أن ينزل به الانتقام الالهي ويأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ ابراهيم ٤٢.

ولذا يقول الإمام علي عليه السلام في محاكمة ومحاسبة ضحايا أنفسهم المصابين بمرض خداع الذات رغم أن الظروف المحيطة كانت تحول دون السقوط في هذه المنزلقات والمنحدرات:

فتعالى من قوي ما أكرمه!!

وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته!!

وأنت في كنف ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب.

فلم يمنعك فضله، ولم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مطرف عين في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك.

ويقول عليه السلام في موضع آخر:

الحذر الحذر! فوالله لقد ستر، حتى كأنه قد غفر.

والثابت أن الله سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ﴿وكذلك أخذ ربك

اذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد* إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود* وما نؤخره إلّا لأجل معدود﴾ هود ١٠٢ ـ ١٠٤.

ولذا ينبه الإمام هذا الإنسان ليوقظ وعيه على الخطر القادم لا ريب فيه حال بقائه مصراً على ما هو فيه (وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة، وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته)!!.

وحقاً إنه ﴿لا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون﴾ الأعراف ٩٩.

ولك أن تلاحظ أن الغرور بالدنيا وزخرفها وما تمنحه للبعض من إحساس زائف بالقوة والتمكن والعلو هو الطريق الأقصر نحو السقوط في الهاوية.

وعلى العكس تماماً فإن الخشوع والخضوع والإخبات لله رب العالمين هو الطريق الأقصر للسمو والرفعة.

محاكمة الإنسان

إنها اذا محاكمة الإنسان لنفسه قبل فوات الأوان، حين ينفع الندم وتفيد التوبة قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴿هل ينظرون إلّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون﴾ الأنعام ١٥٨.

يقول الإمام علي عليه السلام (عباد الله زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا وتنفسوا قبل ضيق الخناق وانقادوا قبل عنف السياق واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ لم يكن له من غيرها زاجرٌ ولا واعظٌ) خطبة ٨٩ نهج البلاغة.

فالجريمة ثابتة والاعتذارات واهية وغير مقبولة على الإطلاق كما أن الرحمة الإلهية قد منحت ذلك المذنب المغرور مهلة واسعة ليفيق من سكرته ويؤوب من غفلته ولكنه أضاع الفرصة تلو الفرصة ولابد لمن كان هذا حاله أن يرى بعينيه سوء مآله يوم لا

ينفع الندم.

يوم يعض الظالم على يديه، يقوله يا ليتني كنت ترابا!!.

محاكمة الإنسان بالإنسان

لا شك أن مبارزة الإنسان لربه بالمعاصي هي معركة محسومة النتيجة سلفاً ولابد أن ينتهي الأمر بهزيمة مروعة ومؤلمة لهذا المتطاول على مقام رب العزة الذي (وهو الله الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب).

لذا يوجه الإمام الخطاب لهذا المغرور بقوله:

أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك؟

فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله، أو ترى المبتلى يألم يُمض جسده فتبكي رحمةً له!!

فما صبرك على دائك، وجلدك على مصابك وعزاك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك!.

أي منطق أو عقل يدفعك للبكاء على ما ينزل بالآخرين من ألم ومرض وتجاهل ما نزل بك من مرض أخلاقي هو أسوأ وأشرس مما لحق بغيرك؟!.

أي عقل وأي منطق يدفعك لرؤية عيوب الآخرين والغفلة عن عيبك؟!.

أي عقل وأي منطق يدفعك للوم الكافرين على غرورهم وغفلتهم رغم علمك بما يمليه عليك الإيمان والإسلام من تواضع لله ونبذ العدوان على العباد ولماذا يسهل عليك الاستهانة بمعاصي الله وكأن ادعاء الإيمان هو مجرد رخصة لارتكاب المخالفات يفتقدها الخارجون عن هذا الإطار؟!.

أليس العكس تماماً هو الصحيح؟!.

فالدخول في دائرة الإيمان يجعل المؤمن عالماً بما يسخط الله ويوجب عقابه ويجعل الحجة عليه أكبر وأوضح من الجاهل بحقيقة الإيمان وتكاليفه.

أما ترحم من نفسك أيها العاقل ما ترحم من غيرك؟!.

نداء أخير يوجهه الإمام لهذا الغافل المغتر

أما من دائك ومرضك الذي أصابك بالعمى الدائم أو المؤقت بلول (أي شفاء) أم ليس من نومتك ورقادك وسكرتك التي طالت يقظة وصحوة وانتباه؟.

النتيجة النهائية:

تنتهي محاكمة النفس الإنسانية المصابة بهذا المرض المهلك الفتاك، مرض الغرور والغفلة الذي استشرى واستفحل بسبب مرض آخر أشد هولاً هو مرض خداع الذات بنتيجة معلنة وواضحة تقول:

أنت أيها المغرور أدحض مسئولٍ حجةً، فلا حجة لك على الإطلاق وربما كان لغيرك حجة أو دفاع ينفعه يوم العرض، يوم الحساب، أما أنت فحجتك ودفاعك هو الأفشل والأسوأ من نوعه.

كما أن اعتذاراتك واهية مقطوعة لا تصمد أمام محكمة العدل الإلهي.

الحكم الإلهي النهائي هو الإدانة وهو حكم العقل وحكم العدل الصادر حتى قبل أن تبدأ المحاكمة.

وإن كان من الضروري أن يكون هناك تعقيب على هذه النتيجة وعلى هذا المصير الذي اختاره هذا الغافل المغرور لنفسه فلن يكون سوى تلك الكلمات التي قالها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

ألا وإني لم أر كالجنّة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها.